بسم الله الرحمن الرحيم

عظمة التسبيح

بسم الله سبحانه وتعالى وبحمده، وصلاةً على رسوله وسلامًا، ورضوانًا على صحابته وتابعيهم حتى نلقاهم.

أما بعد، فإن تسبيح الله تعالى من أعظم القربات وأجل الطاعات، به ينال العبد ثناء الله، ويحصل ثوابه، ويشكر نعمته، وبه يزول عنه الضيق والكرب، وبه ينزل عليه الفرج، وبه يختم حياته ليرث الفلاح والخير والفرح، وهذا يدلنا على عظيم منزلة التسبيح ورفيع مكانته وكبير ثواب أهله.

***

وفي القرآن الكريم سبع سور بدأت بالتسبيح، هي: الإسراء، والحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن، والأعلى، دارت فواتحها على هذه الألفاظ الأربعة: "سبحان، سبَّح، يسبّح، سبّح".

وقد وردت مادة سبَّح في القرآن الكريم (٩٢) مرة، يخص التسبيح منها (٨٧) مرة، بين ماض: {سبّحَ}، ومضارع: {يسبِّح}، وأمر: {سبِّح}، ومصدر: {تسبيحَهم}، واسم مصدر: {سبحان}، واسم فاعل: {المسبِّحون}.

وهذا يدلنا على عظمة التسبيح.

***

وإذا كان القرآن مليئًا بالتسبيح، فالكون مثله مليء بالتسبيح، والتاريخ مثله مليء بالتسبيح، وبهذا يكون قد اجتمع على ذلك العمل الشريف: عمل الكتاب المسطور (القرآن) والكتاب المنظور (الكون) والكتاب المأثور (التاريخ).

وهذا يدلنا على عظمة التسبيح.

***

وباستقراء القرآن الكريم نجد أن الله تعالى سبَّح نفسه، وأخبر أن كل شيء يسبِّحه، وأمر خلقه بتسبيحه.

فأما تسبيحه نفسه ففي آيات، منها قوله تعالى: {سبحان ربك رب العزة عما يصفون}.

ومن خبره أن كل شيء يسبحه عز وجل قوله تبارك اسمه: {تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم..}.

والمسبحون لله في القرآن من مخلوقاته: الملائكة، والأنبياء، والمؤمنون، والخلوقات جميعها.

وأما أمره عز وجل خلقه بتسبيحه، فمنه قوله جل ثناؤه: {فسبح باسم ربك العظيم}، {سبح اسم ربك الأعلى}.

وهذا يدلنا على عظمة التسبيح.

***

ولما كان التسبيح تنزيه الرب وتعظيمه وإجلاله عما لا يليق به طلبه الشرع من المكلف في الصلاة وخارجها، في الصباح والمساء وفي غيرهما.

ففي الصلاة في الركوع نقول: "سبحان ربي العظيم، "سبحان ربي العظيم وبحمده"، "سبوح قدوح رب الملائكة والروح"، "سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي"، "سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة".

وفي الصلاة في السجود نقول: "سبحان ربي الأعلى"، "سبحان ربي الأعلى وبحمده، "سبوح قدوس رب الملائكة والروح"، "سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي"، "سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة"، "سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت".

وخارج الصلاة، في الصباح نقول ثلاث مرات: "سبحان الله وبحمده: عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته"، **وفي الصباح والمساء نقول**: "سبحان الله وبحمده" مئة مرة، وفي الحديث: "من قالها مائة مرة حين يصبح وحين يمسي لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلا أحد قال مثل ما قال أو زاد عليه".

وقبل النوم نقول: "سبحان الله"، ثلاثًا وثلاثين.

وعند الاستيقاظ نقرأ آخر آل عمران وفيها: {... ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار..}.

وعقب كل صلاة نقول: "سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر - ثلاثًا وثلاثين - لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير".

وفي غير ذلك - أثناء النهار والليل - نقول: "سبحان الله"، ونقول: "سبحان الله وبحمده"، ونقول: "سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر".

وقد ورد التسبيح في القرآن في مواطن: تنزيه الله، ومنه قوله عز ثناؤه: {قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرًا رسولًا}، وعند الدلالة على قدرة الله وعظمته، ومنه قوله عز ثناؤه: {ربنا ما خلقت هذا باطلًا سبحانك}، وعند التعجب، ومنه قوله عز ثناؤه: {سبحانك هذا بهتان عظيم}، وعقب الطاعة، ومنه قوله عز ثناؤه: {فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل فسبحه وأدبار السجود}، وبعد النصر، ومنه سورة النصر، وعند الاستواء على الدابة، ومنه قوله عز ثناؤه: {ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا..}، وعند الكرب، ومنه قوله عز ثناؤه: {فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين}.

وفي أوقات مخصوصة، مثل: العشي والإبكار، ومنه قوله عز ثناؤه: {وسبِّح بالعشي والإبكار}، والبكرة والأصيل: ومنه قوله عز ثناؤه: {وسبحوه بكرة وأصيلًا}، وقبل طلوع الشمس وقبل غروبها وآناء الليل وأطراف النهار، وأدبار السجود، ومنه قوله عز ثناؤه: {وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها}، {ومن الليل فسبحه وأدبار السجود}، {وسبحه ليلًا

طويلًا}، وفي الصباح والظهر والمساء، ومنه قوله عز ثناؤه: {فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون، وله الحمد في السماوات والأرض وعشيًّا وحين تظهرون}.

وهذا يدلنا على عظمة التسبيح.

***

وأعظم ما يكون التسبيح حين يقرن بالحمد، وفي القرآن الكريم والسنة النبوية من ذلك قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: {فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين}، {فسبح بحمد ربك واستغفره} في سبعة مواضع من القرآن الكريم، وورد في السنة المطهرة من قول النبي صلى الله عليه وسلم:

- "من قال حين يصبح، وحين يمسي: سبحان الله وبحمده، مائة مرة، لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به، إلا أحد قال مثل ما قال، أو زاد عليه".

- "من قال سبحان الله وبحمده في اليوم مائة مرة حطت عنه خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر".

- "كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم".

- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل أي الكلام أفضل؟ قال: ما اصطفى الله لملائكته، أو لعباده: سبحان الله وبحمده.

- "أحب الكلام إلى الله أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، لا يضرك بأيِّهن بدأت".

- أن النبي صلى الله عليه وسلم - حين خرج إلى صلاة الصبح - وجويرية جالسة في المسجد فرجع حين تعالى النهار فقال: لم تزالي جالسة بعدي؟ قالت: نعم، قال: قد قلت بعدك أربع كلمات، لو وزنت بهن لوزنتهن: سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ومداد كلماته، ورضا نفسه، وزنة عرشه".

- "إن أحب الكلام إلى الله أن يقول العبد: سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك..".

- أن سعد بن أبي وقاص دخل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على امرأة وبين يديها نوى أو حصى تسبح به، فقال: "ألا أخبرك بما هو أيسر عليك من هذا أو أفضل؟"، فقال: "سبحان الله عدد ما خلق في السماء، وسبحان الله عدد ما خلق في الأرض، وسبحان الله عدد ما بين ذلك، وسبحان الله عدد ما هو خالق، والله أكبر مثل ذلك، والحمد لله مثل ذلك، ولا إله إلا الله مثل ذلك ولا حول ولا قوة إلا بالله مثل ذلك".

- عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: رآني النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أحرك شفتي، فقال لي: بأي شيء تحرك شفتيك يا أبا أمامة؟ فقلت: أذكر الله يا رسول الله، فقال: ألا أخبرك بأكثر وأفضل من ذكرك بالليل والنهار؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: تقول: سبحان الله عدد ما خلق،

سبحان الله ملء ما خلق، سبحان الله عدد ما في الأرض والسماء، سبحان الله ملء ما في الأرض والسماء، سبحان الله عدد ما أحصى كتابه، سبحان الله ملء ما أحصى كتابه، سبحان الله عدد كل شيء، سبحان الله ملء كل شيء، الحمد لله عدد ما خلق، والحمد لله ملء ما خلق، والحمد لله عدد ما في الأرض والسماء، والحمد لله ملء ما في الأرض والسماء، والحمد لله عدد ما أحصى كتابه، والحمد لله ملء ما أحصى كتابه، والحمد لله عدد كل شيء، والحمد لله ملء كل شيء".

وإنما كانت "سبحان الله وبحمده" كذلك لأن التسبيح: تنزيه الله عن كل نقص وتبرئته من كل سوء، والتحميد: وصف الله بكل كمال ومدحه بكل جميل، والجمع بينهما هو تمام التعظيم.

وهذا يدلنا على عظمة التسبيح.

***

من أجل هذا كان ذلك الكتاب: "الأربعون التسبيحية" من تصنيف أختنا الكريمة: سلمى بنت فتحي عبد العزيز، جمعت فيه أربعين حديثًا في فضائل التسبيح، تأتسي فيه بمن سبق من أهل العلم في تصنيف الأربعينيات في موضوع من الموضوعات، وتطلب به تذكير إخوانها وأخواتها من المسلمين والمسلمات بفضل التسبيح ودوره في تحصيل الأجور والمنزلة عند الله تعالى، أسأل الله تبارك وتعالى أن ييسر لها وينفع بها وبكتابها ويرزقه القبول ويكتب أجرها.

***

وقبل أن أضع القلم في تقديم هذا الكتاب المبارك الباعث والمقصد أحب أن أنبه إلى عدة أمور، وددت لو أن المصنفين راعوها في تصانيفهم، وأكتفي بخمسة أمور:

الأول: أن يجمع من أراد التصنيف كل المصنفات التي كتبت في الباب والموضوع الذي يريد أن يكتب فيه، ويقرأها أو يقرأ منها ما له صلة بموضوعه، ثم ينظر محل موضوعه منها: هل هو زيادة عليها، أو مجمل فيها، أو مفرق، أو ملتبس.. إلخ، فإن كان ذلك فليتوكل على الله ويكتب فيه مع بيان ذلك في كتابه.

الثاني: أن يعتني من يريد التصنيف بمواضع الحاجة لهذا الزمان وأهله من موضوعات وأساليب، فإن من مقاصد التصنيف الواجبة في عصرنا: التقريب والتيسير مع ضم المستجدات وكشف الشبهات في الموضوع المصنَّف فيه، والموضوعات التي تحتاج إلى هذا كثيرة ومتنوعة، وهكذا الشأن في كل زمان، ولذلك تعددت المصنفات في كل فن، وما سار علماء فن في تصانيفهم على غير ذلك فراحوا يغربون ويشكلون ويعرضون عن مهمات زمانهم واحتياجات أهله إلا كان عملهم مفسدة وجهدهم مضرة وانشغالهم وعملهم في غير المطلوب في الشرع.

الثالث: أن يحرص من يريد التصنيف على مراجعة أهل العلم في كل جزئية من الجزئيات التي لا تقع في دائرة تخصصه حتى يتأكد أن كتابته فيها وتحريره لها على وجه صحيح يرضاه أهل التخصص، ثم يحمل الكتاب بعد إلى من يراجعه من أهل التخصص فتكمل له السلامة ويسلم من الملامة.

الرابع: أن يقصد من يريد التصنيف في موضوع من الموضوعات إلى جمع كل ما يقع تحت موضوعه من جزئيات قدر الطاقة، بحيث يغني بحثه غيره من الباحثين ويكفي كتابه من سواه من الكاتبين، فلا يكون ثم استدراك أو إعادة، وهذا فيه ما فيه من مقاصد طيبة وغايات حسنة ومساع مشكورة.

الخامس: أن يهتم من يريد التصنيف بكتابه من حيث الشكل مثلما يهتم به من حيث المضمون، فيعتني بحرفه وشكله وخطه وتدقيقه وتنسيقه وتنميقه وزينته وألوانه، فإننا في زمن تأخذ هذه الأشياء بأعين أهله وتغريهم بالقراءة والتناول مثلما تغريهم الفكرة والموضوع.

وأضع القلم داعيًا بالتوفيق والسداد والهدى والرشاد للكتاب ولكاتبته، حامدًا مصليًا.

أحمد الجوهري عبد الجواد